

إشكالية التراث في الخطاب الفلسفي المغربي أركون، الجابري - أموجاً

د.نورالدين بن قدور*

مقدمة:

لقد شكّل التراث العربي موضوعاً جذاباً للباحثين المعاصرين، فانكبوا عليه يحلّلونه ويقومونه، ومن أبرز هؤلاء، المفكر الجزائري: "د. محمد أركون" والمفكر المغربي "د. محمد عابد الجابري" اللذين أجمعا على أنّ الحل من المأزق الذي يعيشه الواقع العربي والإسلامي بصفة عامة، يكمن في ضرورة مدارس التراث كأهم شرط لتحقيق النهضة، غير أنهما اختلفا من حيث المنهج والموقف من التراث ومصداقيته.

وهذه الورقة، محاولة للإجابة عن بعض الأسئلة، ذات العلاقة بالموضوع ومنها: هل المشاريع الفلسفية العربية الزاهنة، إبداع وتجديد أم مجرد إعادة ونقل يصبوا لما هو قديم؟ وماذا أفادت هذه المشاريع؟ وهل ساهمت في حركة التنوير الفلسفي الذي ينشده ويطمح إليه الفكر العربي المعاصر؟ وهل تمكّنت من خلق فكر فلسفي عربي متميز؟ هل يمكن خلق مشاريع فكرية عربية معاصرة، يعتمد فيها العقل العربي على نفسه في مواجهة موضوعه؟ وماذا يفعل الفكر العربي مع التغيرات التي تطرأ في العالم والعالم العربي خاصة؟ وهل يمكن للفكر الفلسفي السياسي العربي -مستقبلاً- أن يبدع أشكالاً جديدة للتعامل مع المستجدات العربية والعالمية؟ وكيف يواجه الفكر العربي المستقبلي خطر العولمة في الخارج وخطر التجزئة إلى أقوام وأعراق ونحل وطوائف في الداخل؟

أولاً: مشروع المفكر الجزائري د. محمد أركون: نقد العقل العربي الإسلامي

ماذا يعني نقد العقل العربي الإسلامي؟ وفيما تكمن مهمّات نقده؟ وما السبيل إلى خلق قطيعة مع التفسيرات الميتافيزيقية الخرافية التي تسيطر عليها الميثولوجيا الإسلامية؟
الدكتور محمّد أركون مفكر من أصل جزائري، درس في فرنسا، وعمل أستاذاً للإسلاميات في جامعة السوربون له إنتاج غزير في الإسلاميات، كتب باللغة الفرنسية وتُرجم الكثير منها إلى

* أستاذ بكلية العلوم الإجتماعية والإنسانية، جامعة طاهري محمد، بشار.

Abstract: Though we do not find any philosophers within our Arab world at present time , because of missing them for about eight centuries , and exactly since Ibn Rochd's death. But we can't ignore that there are some thinkers who are still interested in philosophy , and through this written sheet , I am going to point at two excellent models who have so briallant minds . Dr M ed Arakoun an Dr M ed Abed Eljabery who met at the same path and dicussed the heritage critique. Moreover , the Arab heritage has established one attractive task which they analysed and evaluated.

Finally , they agreed that the solution of the Arab crisis generally is to take the heritage into more considerations as an important point to realize the Arab progress.

العربية. من أهم كتبه: الفكر العربي؛ تاريخية الفكر العربي الإسلامي؛ الفكر الإسلامي: قراءة علمية، أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ قضايا في نقد العقل الديني.

يصنف أركون أعماله في إطارين نظريين هما: الإسلاميات المطبقة. - ونقد العقل الإسلامي.. - وتحيل العبارتان إلى سياقين منهجين متباينين، فعبارة "الإسلاميات المطبقة" مستمدة من مفهوم "العقلانية المطبقة" الذي بلوره مؤرخ العلم الفرنسي "غاسون باشلار" في حقل الإسيتمولوجيا (أي الفكر العلمي) واستخدمه عالم الأنتروبولوجيا "جورج بتستيد" في كتابه "الأنثروبولوجيا المطبقة". أما مقولة "نقد العقل الإسلامي" فتحيل إلى كتاب الفيلسوف الألماني الشهير "إمانويل كانط" "نقد العقل الخالص". ومن خلال كتابه "نقد العقل الإسلامي" الذي ترجم إلى العربية تحت عنوان "تاريخية الفكر العربي الإسلامي"، ينطلق من الإحساس بالحاجة الملحة إلى نقد العقل الإسلامي بغية "ترسيخ تقاليد البحث العلمي المتعدد المشارب والمناهج، من أجل تجاوز التمرکز الأوروبي وتحطيم التفرد اللاهوتي"¹ الذي في تصوره هو الذي أنتج تراثنا وهو إذن المسؤول عن إخفاق نهضتنا. ويسعى "د. محمد أركون" من خلال مؤلفه هذا إلى تأسيس تاريخ منفتح وتطبيقي للفكر الإسلامي ويصف مشروعه هذا بأنه "شديد الجودة وشديد التعقيد"² وهو يتحسر إلى ما آل إليه الإنتاج الفكري الإسلامي.

يقول "د. محمد أركون": "إذا ما نظرنا إلى ناحية الباحثين العرب المسلمين وجدنا تأخراً وبتناً ونواقص أشد إيلاماً وحرناً، إن تفاقم المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية منذ سنين السبعينات يفسر لنا سبب الانخفاض الواضح للإنتاج العلمي في المجال العربي والإسلامي كما ونوعاً، أما الأدبيات النضالية فهي على العكس من ذلك وافرة وغزيرة جداً"³.

إن أول مهمات نقد العقل العربي- الإسلامي هي إزاحة القراءات السابقة للتراث الفكري وبيان ضحالتها المنهجية وفي هذا السياق يقدم د. ولد سيد أباه تقسيماً رباعياً للمقاربات المنهجية الخاصة بالـ "د. أركون محمد" على الشكل الآتي⁴: الخطاب الإسلامي النضالي: الذي ينغرس ضمن البعد الأسطوري للتراث في الوقت الذي يعلمن فيه على غير وعي منه المضامين الدينية لهذا التراث بالذات، ثم الخطاب الإسلامي الكلاسيكي: الذي يفصح عن التراث في مرحلة تشكله وترسيخه داخل مجموعة نصيه موثوق أو صحيحة. وثالثا الخطاب الإستشراقي: الذي يعتمد منهجية النقد الفيلولوجي والتاريخي الذي تغلب عليه النزعة التاريخية والوضعية الخاصة بالقرن 19. وأخير خطاب العلوم الإنسانية: الذي يهدف إلى الكشف عن "الأسئلة المطموسة" في الخطابات السابقة، وإبراز العناصر المسكوت عنها فيها (جوانب اللا مفكر فيه وما يستحيل التفكير فيه).

¹ Mohammed Arkoun . Pour une critique de la raison islamique . Maison- neuve et Larose . Paris . 1984 ، p9et10 .

² أركون محمد: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، الفصل الثاني، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1986، دون طبعة، ص 15.

³ أركون محمد، المرجع السابق، ص 15.

⁴ الطاهر لبيب وآخرون - الثقافة والمتنق في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص 207.

وهكذا يعمد "د. أركون" إلى تجاوز عوائق الخطاب المعاصر "الوعي الأسطوري" و"التاريخانية الوضعية" من أجل إبداع منطلقات جديدة في تحديد العقل العربي الإسلامي ورسم أرضيته الجنيالوجية وهي منطلقات تنتهي عموماً إلى شبكة التحليل الواسعة التي أفرزتها الإستيمولوجيا ما بعد الوضعية ومساهمات العلوم الإنسانية في نسختها النقدية الجديدة.

يعتمد "د.محمد أركون" في مشروعه هذا على نمط التحليل البنيوي كمرحلة لازمة كما يعتمد على مقاييس التاريخ الحفري في رسم حركية المفاهيم ونظام المعارف، كانت منهجيته تتلخص في اخضاع القرآن الكريم للنقد التاريخي المقارن والتحليل الألسني التفكيكي أي ما يسمى عنده بالإسلاميات التطبيقية وهي بالنسبة إليه "مساهمة عامة تدرس الإسلام ضمن منظور يهدف لإنجاز الأنتروبولوجيا الدينية"¹، ومن أجل خلق قطيعة مع التفسيرات الميتافيزيقية الخرافية التي تسيطر عليها الميثولوجيا الإسلامية وبغية تجاوز هذا الموقف الأرتوذكسي لابد من تطبيق مقاربتين هما: المقاربة السيميائية اللغوية أي استخدام مقولات السيمياء واللسانيات من أجل عودة نقدية للمواد المقروءة لمعرفة كيف تقوم العلامات المستخدمة في النصوص بالدلالة وتوليد المعنى؟ وماهي الآليات الألسنية أو اللغوية المستخدمة من أجل إنتاج هذا المعنى المحدد وليس أي معنى آخر غيره؟ ولئن ينبثق هذا المعنى وضمن أية شروط"² والمقاربة التاريخية والسيوسولوجية: والغاية منها تفويض الرؤية "الدينية" للتاريخ كما مارسها العلماء المسلمون الأوائل الذين كان لهم اهتمام بالأحداث الزمنية المتسلسلة وبالسيرة الذاتية وبالحكايات المناسبة من أجل البرهنة على صحة المادة المنقولة أو المروية ومدى صحتها.

إذن فالمقاربة التي يريدها "أركون" ترتكز على النظر إلى التراث من خلال بعدين عملت المقاربة الثيولوجية الديموغرافية (الدينية المتعصبة) على طمسهما وتهميشهما وهما، أولاً: تاريخية كل العمليات الثقافية والممارسة العملية التي يندمج الكتاب المقدس بواسطتها داخل الجسد الاجتماعي ويمارس دوره فيه. وثانياً: سوسيولوجيا التلقي أو الاستقبال" أي الكيفية التي تتلقى بها الفئات الإجتماعية أو الإثنية – الاجتماعية المختلفة التراث"³، وأخيراً المقاربة الثيولوجية: أي اخضاع الثيولوجيا (علم الأديان) للقواعد والمناهج المشتركة المطبقة على كل عملية معرفية وعليه لابد من دراسة الوعي انطلاقاً من معطيات جديدة وهي معطيات الأنتروبولوجيا الدينية وعلم النفس المعرفة.

نلاحظ إذن من خلال استعراض خطوات المنهج وعناصر الرؤية لدى محمد أركون أن المرجعية الأساسية لهذا المفكر تنبثق من فضاء فلسفي غربي وهو فكر "ما بعد الحداثة" المتشعبة بمفاهيم الحقل الفلسفي الإستيمولوجي وبالأخص تلك التي تطرح إشكالية "نقد العقل"

¹Mohammed. Arkoun- Lectures du Coran ، Paris ، Maisonneuve et Larose ، (« Islamd'hier et d'aujourd'hui ») ، p17

² أركون محمد: الفكر الإسلامي، قراءة علمية، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1987، ص 32- 35.

³ الطاهر لبيب وآخرون، المرجع السابق، ص 211.

باعتبار أن فكر "ما بعد التنوير" يتأسس على تقويض نمط العقلانية النسقية ذات التوجه العلوي والبعد التاريخاني ذي الشحنة التعبوية الإيديولوجية.

ورغم ما قدمه "د. محمد أركون" من نقد للتراث إلا أننا نجد أنه يؤكد على استحالة الانفصال الكلي عن تراث الأمة فكل نهضة حقيقية لا تتم في اعتقاده إلا بالتواصل مع الماضي الثقافي وترتيب العلاقة معه وهو الهدف الأسمى الذي تنشده الأمم والذي يعني تحقيق "الإستقلال التاريخي للذات الحضارية"¹.

وهو يدعو إلى ممارسة علمانية للإسلام تعتمد النموذج الغربي في نقد السلطة الدينية وفتح الباب أمام حرية التأويل "وهذا ما يبرر ثناءه وافتخاره الكبير بجيل المفكرين الليبراليين الأوائل مثل سلامة موسى وأحمد أمين وطه حسين باعتبارهم طرحوا مشاكل جديدة وقذفوا بتحديات جديدة وشكلوا أول محاولة بتجاوز النظرة الأسطورية تجاه أصول الإسلام ونادوا بمبادئ الديمقراطية والعلمنة"². وضمن هذا المنظور تبني "أركون" نمط التحليل البنيوي كمرحلة لازمة واعتمد التاريخ الحفري في رسم حركية المفاهيم ونظام المعارف وكانت منهجيته القائمة على الأنتروبولوجية والتحليل اللساني السيميائي تتخلص في اخضاع "القرآن الكريم" لمحك النقد التاريخي المقارن والتحليل الألسني التفكيكي والتأمل الفلسفي المتعلق بإنتاج المعنى وتوسعته وتحولاته، وهو ما سماه بالإسلاميات التطبيقية.

إن مشروع نقد العقل الإسلامي الذي يعتبر مساهمة نظرية جادة في دراسة تاريخ الفكر الإسلامي والذي ينتهج "د. محمد أركون" من خلالها إستراتيجية التفكيك (وهي من أهم المناهج الفيلولوجية التي وظفت في الفكر العربي الحديث والمعاصر، وهو مصطلح يعود في أصله إلى الفيلسوف الألماني هيدغر ثم بلوره من جديد جاك دريدا الذي استعمله في تفكيك الميتافيزيقا الغربية).

هذه المساهمة التي تأسس انطلاقاً من خلال صياغة مجموعة من الأسئلة من أجل غاية محددة وهي التفكير في الحدث القرآني أو كما يسميها "أركون" بالظاهرة القرآنية بغية انجاز أنتروبولوجية دينية واستمولوجية تاريخية.

ثانياً: مشروع المفكر المغربي د. محمد عابد الجابري: نقد العقل العربي

ما السبيل إلى تحرير العقل العربي من تشنجات المعقول الديني وردات اللامعقول العقلي؟ وما المطالب الجوهرية لتجديد العقل السياسي العربي؟

يتمحور مشروع الجابري حول نقد العقل العربي ويعني هذا المفهوم النقد الاستيمولوجي للتراث العربي في مستويين: تكوين تاريخي - ونسقي بنيوي وفي حقول ثلاثة هي: المعرفة

¹ أركون محمد: "إشكالية الاصل والمعاصرة في الفكر العربي الحديث والمعاصر، صراع طبقي أم مشكل ثقافي - المستقبل العربي، السنة 07، العدد 69، نوفمبر 1984 ص 101.

² أركون محمد، حوار معه، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان 68-69، أكتوبر 1989، ص 68-69.

والسياسة والأخلاق، ففيما يخص "تكوين العقل العربي": يحدد الجابري تعريفاً ابستيمولوجياً للعقل فيعرفه بأنه: "جملة من القواعد مستخلصة من موضوع ما"¹، أما العقل العربي فهو "الفكر بوصفه أداة للإنتاج النظري صنعتها ثقافة معنية لها خصوصيتها، هي الثقافة العربية بالذات الثقافة التي تحمل معها تاريخ العرب الحضاري العام وتعكس واقعهم أو تعبر عنه وعن طموحاتهم المستقبلية كما تحمل وتعكس وتعبر في ذات الوقت عن عوائق تقدمهم وأسباب تخلفهم الراهن"².

ولهذا فإن الحاجة تدعو اليوم في نظر "د. محمد عابد الجابري" إلى تدشين عصر تدوين جديد تكون "نقطة البداية فيه نقد السلاح ونقد العقل العربي"³، فنقد العقل شرط ضروري من شروط النهضة وغيابه في فكر النهضة العربية الحديثة كان أهم أسباب تعثرها المستمر وهو مطلب لم يتم انجازه حتى الآن وعملية النقد المطلوبة: "تتطلب التحرر من آثار القراءات السائدة واستئناف النظر في معطيات الثقافة العربية الإسلامية بمختلف فروعها دون التقيد بوجهات النظر السائدة"⁴.

فالهدف من نقد العقل العربي حسب "د. محمد عابد الجابري" هو تدشين عصر تدوين جديد يتيح لنا كسر البنية الفقهية السائدة، من أجل إزاحة سيطرة الماضي على الوجدان العربي. ويعتبر عصر التدوين في نظر "د. محمد عابد الجابري" الإطار المرجعي للعقل العربي لأنه يشد جميع فروع الثقافة العربية وينظم مختلف إرثاتها اللاحقة إلى اليوم.

يقول "محمد عابد الجابري": "صورة العصر الجاهلي، وصدر الإسلام والقسم الأكبر من العصر الأموي إنما نسجتها خيوط منبعثة من عصر التدوين وهي نفسها الخيوط التي نسجت صورة ما بعد عصر التدوين، وليس العقل العربي في واقع الأمر شيئاً آخر غير هذه الخيوط بالذات"⁵. ومن هذا المنطلق نجد أن دراسة "الجابري" للتراث العقلي العربي تميزت بتركيزها على آليات إنتاج الفكر أكثر من تركيزها على إنتاج هذا الفكر ولهذا نجده يستبعد علوم التفسير والتاريخ والأدب والطبيعات والرياضيات كما نجده يقصي جوانب الثقافة الشعبية كالأمثال والقصص والخرافات والأساطير واقتصرت أبحاثه على علوم النحو وأصول الفقه، وعلم الكلام والفلسفة لأنها علوم نظرية ذات طابع استدلالي يمكن للباحث رصد آلياتها ومفاهيمها مباشرة، لذا نجده يسميها بالثقافة العالمية، تخدم مشروعه النقدي لأن موضوعها هو العقل، وهو يعتبر أن أغلب الإنتاج النظري الذي بلوره مفكرو الإسلام ينصب في ثلاث أنظمة معرفية تحدد أسسه

¹ الجابري محمد عابد: تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط8، 2002، ص25.

² المرجع نفسه، ص13-14.

³ الجابري محمد عابد: الخطاب العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط6، 1999، ص12.

⁴ الجابري محمد عابد: تكوين العقل العربي، المرجع نفسه، ص05.

⁵ الجابري محمد عابد: تكوين العقل العربي، المرجع نفسه، ص62.

وقواعده العامة: نظام البيان (المعقول الديني). نظام العرفان: (اللامعقول العقلي)، نظام البرهان: (المعقول العقلي).

وهي الأنظمة الثلاثة التي تتحكم في العقل العربي كما يحددها "محمد عابد الجابري". تحكمه هذه الأنظمة في تفاعل وتجاوب مع مستلزمات التاريخ لكن هذه الأنظمة رسمت لهذا العقل حدوده فأصبح يفكر بواسطتها وداخلها وتحول الزمن الثقافي إلى زمن تقليد وتكرار.

وهو يرى أن العقل العربي عقل فقهي، وظهور العقل العربي كان من خلال المعقول الديني الذي قدمه القرآن الكريم كخطاب يدعو الإنسان إلى التحرر "إلى التخلص من الاستيلاء الديني المشخص (عبادة الأصنام) ومن التقليد ومن الخوف ومن قوى الطبيعة ومن مظاهر أخرى من الفكر البدائي بصيغة أخرى كان العقل هو هذه الدعوة نفسها".¹

يعتقد "الجابري" أن وسيلة تحرير العقل العربي من تشنجات المعقول الديني (نظام البيان) وردات اللامعقول العقلي (نظام العرفان) هي الاستراتيجية التي دشنها ابن رشد فتحقيق مصالحة بين المعقول الديني (نظام البيان) والمعقول العقلي (نظام البرهان): (الفصل بين الدين والفلسفة) شرط ضروري لتحرير العقل العربي "من الدوافع والأهداف التي جعلته يقيم اللامعقول العقلي وسيطاً بين الله والناس، بين الدين والفلسفة الشيء الذي جعله يعاني من الحضور المكثف للغيب ومقولاته، ويجد نفسه بالتالي مهياً للهروب تحت وقع أي صدمة من (عالم الشهادة إلى عالم الغيب) من المعقول إلى اللامعقول".²

أما فيما يخص "بنية العقل العربي" يرى "د. محمد عابد الجابري" أن العقل العربي تتحدد معالمه البنيوية من خلال ثلاث نظم معرفية هي: البيان، العرفان والبرهان. فأما البيان (القرآن) فمعقوليته تتحدد داخل الكلام القرآني "في جدلية المعقول واللامعقول في خطابه، جدلية الصراع بين التوحيد والشرك، فالقول بتعدد الآلهة ينطوي في حد ذاته على تناقض لا يقبله العقل".³ ووفقاً لهذا التقسيم يحدد "الجابري" البيانين بأنهم جميع المفكرين الذين أنتجهم الحضارة العربية الإسلامية ويعني بهم علماء النحو والفقه وعلم الكلام والبالغة والأصوليين، وأما العرفان: وهو عند المتصوفة نوع أسعى من المعرفة "يلقى في القلب على صورة كشف أو إلهام أو عيان تمييزاً له عن المعرفة التي تكتسب بالحس أو العقل أو بهما معاً"⁴ والعرفان كنظام معرفي ومنهج في اكتساب المعرفة انتقل إلى الثقافة العربية الإسلامية من الثقافات التي كانت سائدة قبل الإسلام في الشرق الأدنى، ومن بين المسائل التي تؤسس العرفان يحددها "الجابري" على أنها مسائل من مثل الظاهر، الباطن، النبوة، الولاية. وفيما

¹ المرجع نفسه، ص 30.

² جعفر ذلك الباب: مقال بعنوان "دعوة إلى رشفة عربية"، مجلة دراسات عربية، العدد 02، 1999، ص 31.

³ الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، المرجع السابق، ص 136.

⁴ الجابري محمد عابد: بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 8، 2007، ص 251.

يخص البرهان: يعني نظام معرفي يتميز بمنهج خاص في التفكير وبتقرير رؤية معينة للعالم " لا يعتمد سلطة معرفية أخرى غير ذلك المنهج الذي يرجع أساساً إن لم يكن كلية إلى أرسطو"¹. فهو يعتمد منهج أرسطو ويوظف جهازه المفاهيمي والهيكل العام للرؤية التي شيدها عن العالم عن الكون والإنسان والله، أما فيما يخص العقل السياسي العربي فيعتبر "الجابري" "القبيلة، الغنيمة العقيدة" ثلاثة مفاتيح نقرأ بواسطتها التاريخ السياسي العربي"² وهو يعرف العقل السياسي العربي أنه العقل الذي يبحث عن المنطلق الداخلي الذي يحكم محددات الفعل السياس بوصفه سلطة تمارس في مجتمع وينظم العلاقات بينها وظيفته تتعلق بممارسة سلطة الحكم أو بيان كيفية ممارستها. وله محددات وتجليات. فأما المحددات فهي الدوافع الداخلية البيولوجية أو النفسية الشعورية أو اللاشعورية أو منبهات أو مؤثرات خارجية. وأما التجليات فيقصد بها المظاهر والكيفيات التي يتحقق الفعل فيها أو من خلالها وهي نظرية وعلمية. وفيما يخص المحددات (المفاتيح) الثلاث لاستئناف الماضي وقراءة التاريخ السياسي العربي فهي القبيلة: التي نعبر عنها نحن اليوم بالعشائرية ويحدد "الجابري" القبيلة بما حدده "ابن خلدون" بالعصبية وهي ما عبر عنه الأنتروبولوجيون الفرنسيون بالقرابة عند دراستهم للمجتمعات البدائية السابقة على الرأسمالية والغنيمة: التي تشير إلى دور العامل الإقتصادي في المجتمعات التي يقوم فيها الاقتصاد أساساً على "الخراج" و"الريع" والخراج ما يفرضه الغالب على المغلوب من دعائم من أتاوات وضرائب في حين يعبر الريع عن الدخل النقدي أو العيني الذي يحصله الشخص من ممتلكاته أو من الأمير ويعيش منه دون حاجة إلى عمل إنتاجي"³. ثم أخيراً العقيدة: سواءً كانت ديناً أو إيديولوجياً تعني مفعولاً معنياً لدى معتقديها يتأسس على الإيمان ويدفع صاحبها إلى عدم التساهل مع من يمس معتقده، بل قد يضحي بحياته من أجله، والمهم في العقيدة هو "قدرتها على تحريك الأفراد والجماعات وتأطيرهم داخل ما يشبه القبيلة الروحية"⁴.

بهذه المفاتيح تصير القبيلة والغنيمة والعقيدة محددات للعقل الباطن للتاريخ السياسي العربي يقرأ بها "الجابري" التاريخ ورغم أن الطموح النهضوي العربي في العصر الحديث حاول تجاوز هذه المحددات الثلاث إلا أن المجتمعات العربية لم تتمكن من ذلك، وأهم أسباب النكسات والنكبات التي تعرضت لها الأمة كانت بسبب عودة المكبوت الاجتماعي السياسي (القبيلة/ الغنيمة/ العقيدة) وقد تجلى هذا في عودة العشائرية، والطائفية والتطرف الديني وغيرها من مظاهر التجزئة والتشتت التي تعاني منها الشعوب العربية. فأصبحت القبيلة محرماً للسياسة،

¹ الجابري محمد عابد، المرجع نفسه، ص383.

² الجابري محمد عابد: العقل السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط5، 2004، ص52.

³ الجابري محمد عابد: العقل السياسي العربي، المرجع السابق، ص49-50.

⁴ المرجع نفسه، ص51.

وأصبح الربيع جوهر لاقتصادنا وأصبحت العقيدة إما ريعية تبريرية، وإما خارجية نسبة إلى الخوارج¹.

ومن أجل تجديد العقل السياسي العربي يحدد "الجابري" ثلاثة مطالب جوهرية تتمثل في ثلاثة شروط أساسية وهي تحويل القبيلة في مجتمعنا إلى لا قبيلة: أي إلى تنظيم مدني سياسي اجتماعي (أحزاب نقابات، جمعيات حرة، مؤسسات دستورية... إلخ دون إلغاء لدور الإنسان دور العقل والممارسة تحويل الغنيمة إلى اقتصاد ضريبة: أي تحويل الاقتصاد الريعي إلى اقتصاد انتاجي. "في إطار سوق عربية مشتركة كفيلة لإرساء الأساس الضروري لتنمية عربية مستقلة"². وأخيرا تحويل "العقيدة" إلى مجرد رأي: التحرر من سلطة الجماعة المغلقة دينية كانت أو حزبية أو إثنية من أجل التحرر من سلطة عقل الطائفة والعقل الدغمائي دينياً كان أو علمانياً والتعامل بعقل اجتهادي نقدي.

ويعتبر نقد العقل العربي عند الجابري عملية مطلوب القيام بها من دون التقييد بالقراءات السابقة أو وجهات النظر السائدة، لأنها قراءات لم تتصدى لمعالجة مسألة هامة ألا وهي نقد الأداة والسلاح أي نقد العقل العربي نفسه الذي أنتج هذا التراث، إذ لا يمكن في رأيه قيام أي نهضة إذا لم تتم عملية النقد وعملية النقد لا تهتم بالإنتاج والمحتوى وإنما بالطريقة والمنهج الذي أنتجت بواسطته هذه الأفكار.

يتحدد الخطاب الجابري بالانطلاق من أن الفكر الأوروبي يفصح عن نفسه بعنصري العقلانية والتقدم التاريخي، في حين تتم عملية الإفصاح هذه بالنسبة إلى الفكر العربي بعنصري الفقه والركود التاريخي. يقول " إذا جاز لنا أن نسمي الحضارة الإسلامية بإحدى منتجاتها فإنه سيكون علينا أن نقول أنها حضارة فقه وذلك بنفس المعنى الذي ينطبق على الحضارة اليونانية حينما نقول عنها أنها حضارة فلسفية وعلى الحضارة الأوروبية المعاصرة حينما نضعها بأنها حضارة علم وتقنية"³. فالثقافة العربية حسب اعتقاده ذات زمن واحد، راكد "يعيشه الإنسان العربي اليوم مثلما عاشه أجداده في القرون الماضية يعيشه دون أن يشعر بأي اغتراب أو نفي في الماضي لأن العربي حيوان فصيح وبالفصاحة وليس بمجرد العقل تتحدد ماهيته"⁴.

ومن أجل الخروج من أزمة العقل العربي يقترح "الجابري" حلولا منها: ضرورة التحرر من سلطة المرجعية العربية الإسلامية والمرجعية الأوروبية المعاصرة معاً. وكذا التحرر من السلطة المرجعية التراثية التي هي موضوع مشروع نقد العقل العربي، ولا سبيل إلى التجديد والتحديث إلا من داخل التراث نفسه بوسائله الخاصة وإمكانيته الذاتية أما الوسائل المنهجية والمعرفية

¹ المرجع نفسه، ص 374.

² المرجع نفسه، ص 374.

³ الجابري محمد عابد: تكوين العقل العربي، المرجع السابق، ص 96.

⁴ الجابري محمد عابد، المرجع نفسه، ص 75.

الحديثة فيجب أن نعتد عليها لكن بالعمل على تطويع قواها بالصورة التي تجعلها قادرة على أن تمارس قدرتها الإجرائية.

لكن كيف نمارس هذا التحديث والتجديد داخل التراث نفسه؟ يجيب "الجابري" أن لا جواب نهائي لأن التجديد والتحديث في نظره هما ممارسة عملية تاريخية فالسؤال سؤال علمي والإجابة بالتالي يجب أن تكون في الممارسة والأخذ بظاهرة "ابن حزم" التي تعني التمسك بظاهرة النص والتعامل مع النصوص، كما هي "وفهمها داخل دائرة مجالها الأصلي"¹.

وتبني النظرة الرشدية المعتمدة على النظام والترتيب والإفادة من مفهوم طبائع العمران عند ابن خلدون، ولكن "إن تبنينا النظرة الرشدية والخلدونية يمكننا التحرر من سلطة التجويز"². فتبني النظرة الرشدية والخلدونية "يفتح مجال آخر يمارس فيه العقل العربي سلطته وفي نفس الوقت ينمها من خلاله خاصة في مجال التاريخ العربي الذي يصبح خاضعاً في وعينا لمبدأ السببية في العلاقة الجدلية مع المعطيات الموضوعية: الاجتماعية الاقتصادية والإيديولوجية"³. والإشكالية المهيمنة في مشروع "الجابري" النقدي هي: كيف يمكن للفكر العربي المعاصر أن يستعيد ويستوعب الجوانب العقلانية والليبرالية في تراثه ويوظفها توظيفاً جديداً في نفس الاتجاه الذي وظفت فيه أول مرة اتجاه محاربة الإقطاعية والغنوصية والتواكلية وتشيد مدينة العقل والعدل، "مدينة العرب المحررة الديمقراطية الاشتراكية"⁴؟

ورغم المجهود الذي قدمه "الجابري" إلا أنه تعرض لعدة انتقادات لاذعة من قبل مجموعة من النخب المثقفة العربية وغير العربية ولعل أبرز هذه الأقلام د. علي حرب الذي يرى أن "د. الجابري" لم يتجاوز التحديد الإجرائي والإبستمولوجي لماهية العقل وهو التحديد الذي يشكل امتداداً للعقلانية التنويرية، وهذا التصور هو الذي دفع "الجابري" إلى طرح مسبق لكل ما لا يعقل واستبعاد كل ما لا يتوافق مع تصوره المسبق للعقل الكوني في حين نحن لا نعقل جديداً "إلا إذا حاولنا أن نعقل ما لا يعقل، فالعقل لا يتقدم إلا إذا صار ما لا يعقل أمراً قابلاً لأن يعقل"⁵.

ومن جانب آخر يتعرض بالتحليل والنقد "د. هشام غصيب" لمشروع "محمد عابد الجابري" من خلال مؤلفه المعنون ب: هل هناك عقل عربي؟ والذي نجده يخصص خمس وثلاثون موضوعاً لقراءاته النقدية حيث يؤكد على مشكلة التناقضات التي تكتنف إنتاجات "الجابري" حيث

¹ الجابري محمد عابد: بنية العقل العربي، المرجع نفسه، ص 569.

* التجويز: مبدأ كرسسته في الفكر العربي تلك المناقشات الكلامية التي كانت تنطلق من تصور الإرادة الإلهية بالمقارنة مع إرادة الإنسان كل ما يعجز عنه الإنسان يقدر عليه الله.

² الجابري محمد عابد: بنية العقل العربي، المرجع نفسه، ص 370.

³ الجابري محمد عابد: بنية العقل العربي، المرجع نفسه ص 571.

⁴ الجابري محمد عابد، نحن والتراث، مرجع سابق، ص 62-63.

⁵ علي حرب: مداخلات: مباحث نقدية حول أعمال محمد عابد الجابري، حسين مروة، هشام جعيط، عبد السلام بن عبد الله، سعيد بسعيد - دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1985، ص 64/65.

يقول: "ومع أننا لا ننكر غزارة إنتاج الجابري ولا عمقه ولا أصالته... إلا أننا ندرك جيداً طبيعة التناقضات التي تنخر حقيقة هذا الإنتاج ومن ثم حدوده وحدود الاستفادة منه في استنطاق الواقع العربي وتغييره".¹ فالجابري في نظر "د. هشام غصيب" يظل مفكراً مثالياً بالرغم مما يكتسي كتاباته من طابع علمي مادي، فإنها تظل قاصرة عن استيعاب الواقع رغم ما يكتنفها من جرأة فكرية وأدوات نقدية "ويظل أثرها التحرري محدوداً بفعل جوهرها المثالي المستتر خلف الومضات والتبصرات المادية والتاريخية"².

خاتمة:

تبيّن لنا من خلال هذه المقاربة، بين مشروعَي المفكرين المغاربة المعاصرين، محمد أركون، ومحمد عابد الجابري، مدى القيمة التي تكتسبها إشكالية التراث في الخطاب الفلسفي العربي المعاصر، كمحطه تاريخية، تستلزم الإهتمام، والدراسة، كشرط للولوج إلى الحداثة، وكمرجعية معرفية لإبداع مشروع فلسفي عربي متميز، ورغم الجهود التي قدّمها "د. محمد أركون" وهو يحدث مقاربات متباينة ومتكاملة على الوعي الإسلامي، وكيفية إدخال عهد الحداثة، تبقى دراسته تكتسي الطابع النظري، ولا تزال تواجه عوائق أهمها الصراع الذي يعيشه العقل الإسلامي بين التراث الكلاسيكي وحداثة الغرب المعاصر والثقافة العربية الإسلامية والتي تنضوي تحت غطاء إيديولوجي مسيس. وفي ما يخص مشروع الجابري، ورغم كل هذه الانتقادات التي تعرّض لها، إلا أننا نعتقد بأن مشروع "الجابري" يعدّ شكلاً من أشكال الوعي المتنامي ويمثل المدخل الإستشراقي لإعادة إحياء وبعث العقل العربي من جديد، ووضع قطيعة مع ما مضى من أزمنة الانتكاس والإنكسار التي حاصرت العقل العربي الإسلامي لعصور زمنية طال أمدها، جعلته عقيماً لم يتمكّن - إلى الآن - من إنتاج فلسفة عربية معاصرة، متميزة.

قائمة المراجع:

1. أركون محمد: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة: هاشم صالح، الفصل الثاني، مركز الإنماء القومي، بيروت، د.ط- 1986.
2. —: الفكر الإسلامي، قراءة علمية، ترجمة: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1987.
3. —: "إشكالية الأصالة والمعاصرة في الفكر العربي الحديث والمعاصر، صراع طبقي أم مشكل ثقافي - المستقبل العربي، السنة 07، العدد 69، نوفمبر 1984.
4. —: حوار معه، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان 68-69، أكتوبر 1989.
5. الطاهر لبيب وآخرون - الثقافة والمنتقف في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1992.
6. الجابري محمد عابد: تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط8، 2002.
7. —: الخطاب العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط6، 1999.
8. —: بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط8، 2007.

¹ غصيب هشام: هل هناك عقل عربي، قراءة نقدية لمشروع محمد عابد الجابري، دار التنوير العلمي، بيروت، ط1، 1993، ص11.

² المرجع نفسه، ص12.

9. —: العقل السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط5، 2004.
10. جعفر دك الباب: مقال بعنوان "دعوة إلى رشيديّة عربيّة"، مجلة دراسات عربيّة، العدد 02، 1999.
11. علي حرب: مداخلات: مباحث نقدية حول أعمال محمد عابد الجابري، حسين مروّة، هشام جعيط، عبد السلام بن عبد الله، سعيد بسعيد - دار الحدائّة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1985.
12. غصيب هشام: هل هناك عقل عربي - قراءة نقدية لمشروع محمد عابد الجابري-، دار التنوير العلمي، بيروت، ط1، 1993.

مراجع باللغة الفرنسية:

1. Mohammed Arkoun ، Pour une critique de la raison islamique ، Maison-neuve et Larose ، Paris ، 1984.
2. —، Lectures du Coran ، Maisonneuve et Larose ، («Islam d'hier et d'aujourd'hui») ، Paris ، 1983.